سياسة عبد الملك الخارجية

أ- الجبهة الشرقية

لم تسمح الاضطرابات المتلاحقة التي اجتاحت النصف الشرقي من الدولة الإسلامية، للمسلمين بالتوسع في فتوحاتهم. وكانت السياسة الخارجية التوسعية على هذه الجبهة هي آخر اهتمامات عبد الملك لانصرافه إلى معالجة القضايا الداخلية، فكان الجمود هو الطابع العام لسياسة الفتح في ذلك الوقت. لكن قوة الدولة المختزنة سمحت للمسلمين بتحقيق بعض الفتوحات التي لم تكن كبيرة في هذه المرحلة، ولم تنشط فتوحات ما وراء النهر إلا منذ أن تولى الحجاج ولاية خراسان مع العراق في عام (٧٨) هـ / ٦٩٧ م) ، فولى خراسان المهلب بن أبي صفرة الذي غزا مع أبنائه بلاد ما وراء النهر خاصة مدينة كش، والختل ،وريخش وتابع أبناؤه بعد وفاته سياسة الجهاد هذه، إلا أن فتوحات المسلمين لهذه المنطقة لم تأخذ مظهرها الجدي إلا عندما ولى الحجاج، قتيبة بن مسلم الباهلي ولاية خراسان في عام (٨٦ هـ/ ٧٠٥ م)

ب – الجبهة البيزنطية

فقد المسلمون من قوتهم أمام الروم البيزنطيين في عهد الاضطرابات الداخلية التي عصفت بدولتهم، فانتهز الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني هذه الفرصة ونقض المعاهدة التي سبق وأبرمها البيزنطيون مع المسلمين وساق جيوشه لقتالهم، فاجتاح بلاد الشام في عام (٧٠) هـ (٦٨٩م

في هذه الأثناء وقع على الطرف الشرقي للإمبراطورية البيزنطية حادث بالغ الأهمية في تطور العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ففي الحديث عن الشواتي والصوائف التي كان يقوم بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية، تحدثنا المصادر عن وجود جماعات من المردة النصارى في جبال أمانوس وقد ألقوا جيشاً واتخذت منهم السلطات البيزنطية سياجاً في هذه المنطقة كان المردة، بحكم موقعهم الجغرافي ووضعهم السياسي، يحمون الدولة السنطة، من هجمات المسلمين ويدافعون عن معاقلهم الجبلية المنيعة ضد أي اعتداء ٩٢ / ٢٢٥ ما توغلوا جنوباً حتى وصلوا إلى جبال لبنان. وقد ضايقوا المسلمين را يشنونه من غارات مستمرة على المناطق المجاورة خاصة المناطق الساحلية، بتحريض من البيزنطيين، فاضطر عبد الملك إلى شراء سكوتهم تفادياً للحرب في هذه المنطقة من جهة وللتفرغ للمشاكل الداخلية التي استجدت في العالم الإسلامي من جهة أخرى، فعقد

مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني معاهدة في عام (٧٠) هـ/ ١٨٩ م) تعهد الخليفة بمقتضاها أن :

١ – يدفع مالاً معيناً للإمبراطور البيزنطي يبلغ سنوياً ثلاثمائة وخمس وستين ألف قطعة ذهبية، وثلاثمائة وخمسة وستين عبداً وثلاثمائة وخمسة وستين جواداً أصيلاً، مقابل، وقف الغارات البيزنطية، على الأراضي الإسلامية. ٢ – تقتسم الدولتان الإسلامية والبيزنطية خراج أرمينيا وقبرص وإيبريا . ٣ – تسحب الإمبراطورية البيزنطية المردة من منطقة شمالي الشام إلى ما وراءجبال طوروس داخل آسيا الصغرى . ٤ – تستمر المعاهدة مدة عشرة أعوام كان من نتيجة انسحاب المردة من جبال لبنان وشمالي الشام أن دمر ذلك السور النحاسي الذي كان يحمي آسيا الصغرى من غارات المسلمين، وسمح لهؤلاء تجديد غاراتهم على هذه المنطقة وتوطيد مركزهم في الأقاليم التي فتحوها حديثاً. فعادتغزوات الشواني والصوائف، ونجم عنها فتح قيسارية في عام (٧١هـ/ ٦٩٠ م) .

وفي عام (٧٣هـ/ ٦٩٢ م كشف عبد الملك عن نواياه تجاه الإمبراطورية البيزنطية بعد ما فرغ من مشاكله الداخلية، عندما قام بضرب الدنانير الذهبية الإسلامية وأرسلها كجزية بدلاً من العملة البيزنطية. وقد حمل هذا التصرف معنى التحدي للإمبراطور من جهة، كما دلّ على أن الخليفة على وشك استئناف النشاط العسكري على الجبهة البيزنطية من جهة أخرى .

له ١٠- المسلمون في عام (٧٣) هـ / ٦٩٢ م آسيا الصغرى وحققوا انتصاراً

٩٣ / ٢٢٥ اقتصر رد بيزنطية على غزو مرعش في عام (٧٦ هـ/ ١٩٥م) ، وهذا مبين سسى الضعف الذي كانت تعانيه الإمبراطورية البيزنطية. وإذا كان حكم الامبراطور جستنيان الثاني الضعيف انتهى بعزله في عام (٧٦ هـ / ٦٩٥ م)، فلم يكن الأمر بأفضل حالاً في ظل خلفه الإمبراطور ليونتيوس حيث استمرت الغارات الإسلامية على مناطق آسيا الصغرى والمناطق الحدودية، فغزا الوليد بن عبد الملك ملطية في عام (٧٧) هـ / ٦٩٦)(م. كما غزا عبيد الله بن عبد الملك قاليقلا عند منابع نهر الفرات).

ومن حسن حظ الامبراطورية البيزنطية أن الاندفاع الإسلامي باتجاه المناطق الحدودية، وفي عمق الأراضي البيزنطية قد تراجع اعتباراً من عام (٨١هـ/ ٧٠٠ م) يفعل عاملين الأول اجتياح مرض الطاعون بلاد الشام في عام (٧٨هـ/ ٦٩٧ م) والثاني قيام ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في عام (٨١ هـ/ ٧٠٠ م) والتي استمرت أربعة أعوام .

استغل الامبراطور البيزنطي طيباريوس الثالث (هذه الأوضاع وكلف نشاطها العسكري وهزم المسلمين عند سميساط وفي منطقة قيليقيا في عام ٨٤هـ/ ٧٠٣م) إلا أن عبد الملك، وقد فرغ من مشاكله مع ابن الأشعث هاجم إقليم قيليقيا واصطدم بالقوات البيزنطية عند مدينة سيواس، وكانت بقيادة الإمبراطور نفسه، وانتصر عليها وبذلك تكون قد عادت سيطرة المسلمين مجدداً على منطقة أرمينيا. كما تم فتح المصيصة ، وهكذا سرعان ما استعادت الدولة الإسلامية تفوقها الملحوظ على البيزنطيينبفعل مقدرة عبد الملك .

٩٤ / ٢٢٥ بالي أفريقيا

الجبهة الأفريقية المحور الجدي لسياسة الفتوح في عهد عبد الملك بن مروان، إذ خاض المسلمون عدة معارك لتصفية القواعد البيزنطية على الساحل الشمالي وإخضاع البربر لسلطة الدولة.

فبعد أن هدأت أوضاع الخلافة الأموية نسبياً، وجد عبد الملك أمامه متسعاً من الوقت ليقوم بعمل ما في أفريقيا، خاصة وأنه خشي من انعكاس نتائج التحالف البيزنطي - البربري وما يمكن أن يسببه من تهديد للحدود الغربية لدولته، فعهد إلى زهير بن قيس البلوي بقيادة العمليات العسكرية وأمره بالانتقام من كسيلة، واستعادة الأراضي التي أخلاها المسلمون بعد مقتل عقبة . وبتعيين زهير الأفريقية، تبدأ المرحلة الخامسة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا . كانت فاتحة أعمال هذا القائد انتصاره الكبير على كسيلة قرب ممس ودخوله قائداً للجبهة

القيروان. والجدير بالذكر أن كسيلة قتل في المعركة ، إلا أنه لقي مصرعه في صدامه مع البيزنطيين عند درنة، مما دفع عبد الملك إلى تجميد الجبهة الأفريقية بانتظار فرص أفضل) في الوقت الذي كان فيه منهمكا في إخماد حركة ابن الزبير

وما وافى عام (٧٤ هـ / ٦٩٣م ، حتى وجد عبد الملك نفسه قوياً إلى الحد الذي يمكنه من استئناف سياسة الفتوح في شمالي أفريقيا، خاصة بعد أن تجاوزت الخلافة محنتها في الداخل المتمثلة بالقضاء على ابن الزبير، وجاء اختبار حسان بن النعمان الغساني قائداً جديداً، مؤشراً على ذلك) . وبتعيين هذا القائد تبدأ المرحلة السادسة من مراحل فتوح شمالي أفريقيا.

كانت فاتحة أعمال حسان فتحه لقرطاجنة ،أقوى القواعد العسكرية البيزنطية، وحتى يحول دون عودة البيزنطيين إليها، فقد دمر ميناءها. وقد دهم هذا الفتح الموقف الإسلامي، فقام المسلمون

بعمليات سريعة استهدفت المدن الساحلية ففتحوها باستثناء جيوب قليلة منها سبتة التي ظلت الحصن القوي للبيزنطيين .

وقد دعم هذا النصر الموقف العسكري الإسلامي في المغرب . ووقع في غضون ذلك تبدل مذهل في موقف البربر، إذ انفجرت قبائل الأوراس بقيادة امرأة غامضة عرفت في المصادر العربية باسم الكاهنة وهي تنحدر من قبيلة جراءة الزنائية البترية، وقد دانت على ما يبدو، بالعقيدة اليهودية ونجحت الكاهنة في تحقيق التفاف واسع حول ثورتها من البربر الأوراس ومن بقايا البيزنطيين وهذا ما يفسر احتلالها لمدينة بالغاية الساحلية آخر المعاقل المهمة التي احتفظ بها البيزنطيون، ثم راحت تتحدى المسلمين ولم يستطع حسان الذي سارع إلى اعتراض تقدمها في وداي مسكيانة من الوقوف في وجه الحشود الضخمة التي تكتلت وراءها حيث لاقى المسلمون العناء والبلاء حتى أنهم سموا يوم المعركة يوم البلاء». ومما يدل على جسامة الهزيمة أن حساناً ،اضطر تحت ضغط الأحداث العسكرية، إلى التراجع عائداً إلى برقة في ثالث عملية انسحاب للقوات الإسلامية منذ معركة تهودة

ونفذت الكاهنة في غضون ذلك استراتيجية جديدة في مواجهة المسلمين قائمة على التدمير كسلاح خاص ضد استقرارهم وقضى البرير زهاء خمسة أعوام يعملون في تدمير الأرض وتخريبها وحرق الزرع والضرع). وقد آلت هذه السياسة إلى انفضاض بعض البربر والبيزنطيين عنها خاصة أهل المدن وكبار الملاكين والفلاحين مما كان له أثر في وضع حد لنهايتها . أما حسان فقد بقي في برقة طيلة هذه المدة مترقباً وصول الإمدادات إليه من العاصمة دمشق ليثأر لهزيمته، وفي الوقت نفسه كان يترصد أخبار الكاهنة. ولما علم يتضعضع مكانتها استأنف حركة الجهاد.

وقد اقترنت عودته، هذه المرة، بتغيير في موازين القوى والتحالفات السياسية، إذ استقبله السكان البيزنطيون والبربر مستغيثين به من الكاهنة، وقدموا له الأموال والطاعة . واسترد بعض القلاع مثل قابس وقفصة وقسطيلية، ودخل المغرب الأوسط.

وأدركت الكاهنة أنها عاجزة عن مواجهة المسلمين، بعد وصول الإمدادات إليهم وانضمام البيزنطيين والبربر إلى صفوفهم، فأخذت تتراجع موغلة في جبال الأوراس وطاردها حسان مدة عامين إلى أن حصل اللقاء الحاسم معها عند بئر الكاهنة، فانتصر المسلمون على قواتها، وقتلت في المعركة . وبإخماد ثورة الكاهنة، تم القضاء على كل مقاومة، من جانب البربر للحكم.

الإسلامي في المغرب. وحصل في غضون ذلك أن حاول البيزنطيون استعادة قرطاجنة بواسطة أسطول بحري واقتحموها في عام (٨٢) هـ ٧٠١ م) إلا أن حساناً أخرجهم منها، وحتى يقضي

على آمالهم في العودة إليها، دمرها تدميراً كاملاً، وبنى إلى الشرق منها مدينة إسلامية بدلاً منها هي تونس "

سياسة عبد الملك الإدارية.

اهتم عبد الملك بن مروان اهتماماً خاصاً بإدارة شؤون الدولة وقد تمثل ذلك في التحول من دائرة لا تتجاوز آفاق المجتمع القبلي إلى إطار المؤسسات الإدارية. والحقيقة أن عبد الملك لم يكن رائد هذا الإصلاح الإداري في الدولة الإسلامية، ولكنه تابع خطوات كان قد بدأها عمر بن الخطاب في هذا الاتجاه، ثم معاوية بن أبي سفيان في مطلع عهد دولة الخلافة الأموية. لكن شهرة عبد الملك الإدارية مبعثها أن إصلاحاته سارت في اتجاهين تطوير الجهاز الإداري وتنشيطه، وتعريب الإدارة والنقد وهو ما يعرف بحركة التعريب

أ – تطوير الجهاز الإداري

ويبدو أن الدافع لذلك، الظروف السياسية والاضطرابات والحركات المناهضة للحكم الأموي التي شهدتها الدولة، وشلت طاقاتها، في أعقاب وفاة يزيد الأول مما انعكس سلباً على الجهاز الإداري فأصيب بالجمود وحدا بعبد الملك إلى إعادة تنشيطه وتنظيمه وتطوير أساليب العمل فيه، بعد أن أدرك أنه لابد من قيام إصلاحات إدارية إذا ما أريد استيعاب مشاكل الشعوب التي تألفت منها الدولة ومعالجتها في بالإضافة إلى تحقيق الانسجام في إدارة الدولة، فاتخذت الدولة في ٩٨ / ٢٢٥ مد كثيراً عن أشكال الدول المعاصرة . هذا وقد توزعت الإدارة في عهده إلى خمسة دواوين رئيسية تولت تصريف شؤون الحكم وهي ديوان الخراج ديوان الجند، ديوان الرسائل، ديوان الخاتم وديوان البريد .

ب – حركة التعريب

تعريب الإدارة

الواقع أن المهمة الكبرى التي نفذها عبد الملك بن مروان في حقل الإصلاح الإداري تلك التي أسفرت عن تعريب الإدارة، ومعها النقد كضرورة من الضرورات

الواجب اتخاذها لإرساء قواعد الدولة على أسس متينة قوية، ذلك أن الدولة، منذ عهودها الأولى، لم تلتفت إلى خطة إعداد فئة من الموظفين وتدريبهم لتغطية الفراغ الإداري الذي واجهته بل الصبت جهودها على إنشاء جهاز عسكري قوي مكنها من تنفيذ سياسة الفتوح، وقد اضطرت لتأمين أعمال الإدارة، الاستعانة بموظفين غير عرب وغير مسلمين أحياناً من أهل البلاد المفتوحة من الذين سبق لهم أن مارسوا هذا النوع من الأعمال سواء في مناطق النفوذ البيزنطي، أو في مناطق النفوذ الفارسي باستثناء ديوان الجند، الذي بقي محافظاً على طابعه وعمله العربي. وكانت اللغة التي لا تزال أداة الكتابة، وتحرير المعاملات وتسجيل البيانات في دواوين الخراج هي ؟ الموظفين أنفسهم الذين كانوا يجهلون اللغة العربية.

نتيجة اختلاف لغات دواوين الخراج في كل منطقة ظهر اختلاف وتمايز واضحين بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق وفارس عنها في بلاد الشام ومصر مما كان له أثر سلبي على نظام الدولة الاقتصادي وإدارتها المالية . وانطلاقاً. المسلمات أمر عبد الملك عمال الأقاليم في العراق ومصر مهمة تعريب الدواوين في حين تولى بنفسه الإشراف على تنفيذ المهمة في بلاد هذه من الشام" وقد استغرقت هذه المهمة عدة سنوات حتى أضحت اللغة العربية، لغة الإدارة الرسمية. وكان طبيعياً أن يعقب تغير لغة الكتابة تغير في أشخاص الموظفين، فنشأت تدريجاً طبقة من الموظفين والكتاب العرب تولت أعباء مما حمله أسلافهم من غير العرب. والواقع أن خطوة التعريب هذه كانت هامة النتائج على الصعد التالية :

1 – سرعة انتشار اللغة العربية في البلاد المفتوحة.

2- إقبال سكان تلك البلاد على اعتناق الدين الإسلامي، خاصة وأن اللغة العربية هي لغة القرآن، وبالتالي للحفاظ على مصالحهم الخاصة.

٣ – صبغت الدولة بالصبغة العربية المحضة

(٢) تعريب النقد

جاء قرار تعريب النقد، متوازياً مع قرار تعريب الإدارة، والجدير بالذكر أن عبد الملك سعى إلى توحيد النظام النقدي في سائر أنحاء الدولة، بعد أن تعددت العملات الخاصة المتداولة، إلى جانب تداول عملات فارسية وبيزنطية، في الوقت الذي بلغت فيه الدولة الأموية ذروة تألقها السياسي

والحضاري، مما يتعارض مع تطبيق سياسة عربية في كافة وجوه الحياة (. أما الخلاف بينه وبين الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني أو ما يعرف بقضية القراطيس المصرية) فإنه لا يعدو كونه عاملاً مساعداً لهذه العملية. فضرب النقود الذهبية في عام ٧٤ هـ / ٦٩٣ م) كما ضرب الدراهم والدنانير الإسلامية اعتباراً من عام (٨٤) هـ / ٧٠٣م)، وهو أول من ضرب النقود الإسلامية المستقلة .

وأنشأ عبد الملك داراً للضرب جمع فيها الطباعين، فكان يُضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة المواد الأخرى التي تدخل في عملية الضرب.

وأمر عبد الملك أن يجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله ﷺ أحدهما في وجه الدراهم والدنانير والآخر في الوجه الثاني، وأن يجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها) ... واهتم عبد الملك بمراقبة أوزان هذه الدراهم والدنانير حتى لا يدخلها الغش، ثم

أمر بالتعامل بالنقود الجديدة وهدد كل مخالف بالعقاب بالضرب الوجيع والحبس الطويل، ثم بالقتل وهكذا لم تعرف عند المسلمين عملة إسلامية خالصة إلا في عهد عبد الملك الاعتبار حين ضرب النقود، فاتخذ النسبة القديمة والتي أقرها رسول الله فأمر أن تضرب الدراهم على وزن عشرة، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل . التخلص من النقود المتضمنة عبارات خاصة بالنصارى كالتثليث .

الذي حقق نتيجة توحيد النقد وتعريبه عدة فوائد منها : مراقبة ومحاربة الغش والزيف والتمييز بين الجيد والرديء مما كان له أثر في إعادة الثقة المالية واستقرار أسعار الحاجيات. إلغاء التفاوت في تقدير الزكاة والصداق والديَّة بفعل أن عبد الملك أخذ بعين

دفعت حركة توحيد النقود وتعريبها دولة الخلافة الأموية خطى واسعة إلى الأمام، وساعدتها الظروف السياسية المؤاتية على تحقيق هذا الغرض ـ تحقيق المركزية في السلطة بعد أن اشترك في ضرب النقود كثير من الولاة، وبعض المطالبين بالخلافة والعمال الثائرين على الدولة.

تحرر السيادة العربية من أي نفوذ أجنبي تمهيداً للتحرر الاقتصادي. وهكذا نجح عبد الملك في محاولته الجدية وعبر جهود مكثفة في إقامة دولة جديدة في ملامحها ومقوماتها، متطورة في مؤسساتها، جاءت نتيجة الواقع السياسي والاقتصادي واستجابة لظروف ملكة.

ولاية العهد – وفاة عبد الملك

كان مروان بن الحكم قد ولى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز من بعده. وفي عام (٨٥) هـ / ٧٠٤ م) أراد عبد الملك أن يعزل عبد العزيز ويولي مكانه ابنه الوليد، غير أن القدر قد أراحه مشقة ذلك بوفاة عبد العزيز، فعهد إلى ابنه الوليد ثم سليمان من بعده، وكتب بيعته لهما إلى البلدان ليبايع الناس

وتوفي عبد الملك يوم الخميس في منتصف شوال عام ٨٦ هـ/ أيلول عام

٧٠٥ م) بدمشق عن عمر يناهز الستين عاماً، وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة

وشهر أو نصف